"النَّزْعةُ الدِّيْنِيَةُ في الرِّوَايَةِ السُّعُوْدِيَّةِ المُعَاصِرَة – رِوَايةُ (صفحاتٌ مِنْ مُذكِراتِ خَادِمَة) لعائشة البديِّع ، أنموذجاً"

د . سليمان علي محمد عبد الحق*

- ١ -

" عائشة البديّع " من الأصوات القصصية والروائية السعودية التي أصدرت إنتاجها الأدبي حديثاً ، حيث إنها من مواليد تسعينيات القرن الماضي، وعلى الرغم من حداثة سنها ، فقد بدأت مشوار الكتابة الأدبية شعراً في وقت مبكر ، ثم تحولت إلى كتابة القصة ، فالرواية ، وقد صدر لها قصتان ، هما : (ستارة النافذة) ، و (بين قلبين) ، كما صدر لها رواية حديثة هي موضوع هذه الدراسة ، وهي (صفحات من مذكرات خادمة) ، وهي ترى نفسها " كلمة تريد الوصول ، وقلباً يريد أن يروض الحرف " ، كما أنها تؤمن بأن الورقة هي الوطن ، والقلم هو الراحلة ، والحرف قلب لا يمل الترحال والعودة .

وتبدو الكاتبة من بداية الرواية حاملة هموم الوطن ، مصورة لحركة التطور الاجتماعي والحضاري في إطار جمالياتها المخصوصة ، وعلى الرغم من أن عنوان الرواية يحمل طابعاً تسجيلياً ، فهي لا ترصد الواقع وتسجل تفاصيله بقدر ما تنفذ إلى جوهره بأدواتها الفنية ورؤيتها الخاصة ، فضلاً على معالجة عدة قضايا اجتماعية ، وسياسية ، وثقافية ، تقف جنباً إلى جنب مع القضية الرئيسة في هذه الرواية ؛ وهي قضية التدين عند الشخصية السعودية [١].

واللافت للنظر حقاً ، بل الجدير بالملاحظة أن الكاتبة استطاعت أن تعالج كل هذه القضايا الفرعية ، بالإضافة إلى القضية الرئيسة ، برؤية وجدانية عاطفية ، غلب عليها الوضوح وسلاسة السرد ، ومما زاد من إمتاع المتلقي وإقناعه بالفكرة معاً ، تلك النزعة الواقعية الواضحة التي استطاعت الكاتبة من

* أستاذ النقد الأدبي والبلاغة المشارك بقسم اللغة العربية كلية الآداب جامعة الإسكندرية

خلالها التعبير عن واقع البيئة السعودية – في مدينة الرياض – ومشكلاتها تعبيراً دقيقاً ، لا يكتفي بالتنظير ، بل يتعمد تشريح هذه المشكلات ، والاستطراد في وصفها بعمق ، معولة على التفاصيل المشهدية التي استطاعت أن ترسخ لتلك النزعة الواقعية في الرواية .

والكاتبة صادقة في تجربتها حين قدمتها إلى القراء ، من خلال وعى ملحوظٍ بأصول الكتابة الفنية للقصة والرواية ، وصيغ البناء الأدبي لكل منهما ، ولذا حاولت جادة أن تعبر عن تجربتها في أشكال جديدة ، أو غير تقليدية ؛ فرواية " صفحات من مذكرات خادمة " تنقلنا إلى عالم الخدم والشغالات في البيوت السعودية ، وما يجرى فيه من مآسٍ ، وصراعات ، وما يزخر به من همومٍ وآهات ، حاولت الكاتبة خلالها أن تشرِّح بُنَى المجتمع السعودي الحديث ، الذي يمثل الخدم والشغالات أحد مظاهر التحضر فيه ، وجزءاً لا يتجزأ من بنيانه الاجتماعي ، بما فيه من إيجابيات وسلبيات .

إن تجربة " عائشة البديّع " إذًا لها مذاق جديد ، وتبشر بروائية موهوبة تجذب القارئ إلى عملها جذباً ، وتحرك لديه عناصر التفكير والانفعال والتحليل والاستنتاج ؛ لأنه بإزاء قضايا غاية في الأهمية ؛ لأنها تهم الوطن ، والدِّين ، والإنسانية جميعاً ، وإن عالجتها الكاتبة من خلال المقارنة بين أسرتين أو شريحتين متناقضتين في المجتمع السعودي ؛ الأولى : أسرة غنية توافرت لها كل أسباب الترف والرفاهية ، فهم يعيشون في بيت كبير أشبه بالقصر ، يتكون من طابقين ، وكل طابق به عدد من الغرف ، ويحتوي أثاثاً جميلاً ، ومجلساً للنساء ، وآخر للرجال ، وكلاهما مليء بالمقاعد الفخمة ، والستر الرائعة ، والتحف الجميلة .

لكن أياً من أفراد المنزل الستة لا يصلي ! بل إن الحياة المادية ببريقها وزخرفها قد استعبدتهم ، فلم يعبأوا بصلاة الفجر ، ولا بأي من الصلوات الخمس ، كما أنهم قساة القلب ، وجلُّ ما يشغلهم في هذه الحياة هو إشباع نزواتهم الشخصية ؛ فالأب سكير يعاقر الخمر ، والأم تبهرها المظاهر الاجتماعية الزائفة ، ولا يشغلها من زوجها سوى توفير المال ، والشاب الكبير

(خالد) منغمس في ري شهواته الجنسية ، فدائما يطارد الشغالات ، ويغريهن بالذهب والريالات ، والفتاتان (مها ، وعهود) لا تنشغلان سوى باللهو والرقص ، واقتناء الملابس الضيقة باهظة الثمن ، خاصة البنطال والقمصان القصيرة ، وزيارة صديقاتهن، والاستماع للموسيقى الصاخبة ، والتزين بأغلى أنواع الحلي والإكسسوارات ، والتعطر بأبهى العطور العالمية النفاذة.

ولم يتبق من هذه الأسرة سوى (طارق) ؛ ذلك الطفل الصغير النقي ، الذي لم تلفحه عدوى المدنية الزائفة ، فلا يزال يحتفظ ببراءته ، وهو الذي يملأ البيت فرحاً ومرحاً وسعادة دائمة.

أما الأسرة أو الشريحة الأخرى في هذا المجتمع ، فهي أسرة (إبراهيم) ؛ تلك التي ترتبط بعلاقة خئولة مع الأسرة الأولى ، وهي أسرة سعودية على النقيض تماماً من سابقتها ؛ تتكون من أربعة أفراد ، الأب ، والأم ، وشاب (إبراهيم) ، وفتاة (سامية) ، يعيشون في منزل عادي ، كسته لمسات جمالية بسيطة تنم عن ذوق رفيع ، دونما تكلفٍ أو بذخ .

والأهم في هذه الأسرة أنهم خير عنوان للشخصية السعودية الحقيقية التي لم تخدعها مظاهر التحضر الزائفة ؛ فهم حريصون على أداء الصلوات الخمس في حينها ، لاسيما صلاة الفجر ، الكل يصلي ، والكل حريص على قراءة القرآن ، واقتناء الكتب الدينية ، كما أنها أسرة متماسكة ، حيث يحيط بهم سوار من الود ، والخوف من الله تعالى ، كما أنهم يتميزون عن الأسرة الأخرى ببشاشة الوجه ، ونقاء السريرة ، وخشوع القلب لمولاه.

وخلال هاتين الشريحتين ، مضت الكاتبة تعرض لعواصف الحضارة التي لفحت رياحها المتربة ، الحارة ، كل ما في طريقها من مباديء ، وأعراف ، وتقاليد ، بل أعمت كثيراً من الناس عن واجباتهم نحو خالقهم ، خاصة في المدن السعودية الكبيرة ، كالرياض العاصمة ، ولا شك أن الكاتبة قد مزجت ، بعناية دقيقة ، بين الوصف المكاني ، والوصف النفساني ، مما حقق إثراءً ملحوظاً في الرؤية ، كشف عن حجم التغير الذي أصاب البنية الاجتماعية للمجتمع السعودي المعاصر .

الحياة في نظر الكاتبة خضم كبير من الحبر ، لا تبدو شواطئه ظاهرة للعيان ، لكن على الإنسان أن يجدف بالقلم كربانٍ ماهر ، بغيةَ الوصول بسفينته إلى شاطيء الأمان . وتعتقد الكاتبة أن الحبر ما خلق إلا " لينسكب في حرف ، وليس أي حرف ، شيء يشبه البحث في خضم الحياة عن قصة ، فقط قصة ! قد تحكي حياة قلب ، أو تاريخ وطن ، أو رحلة إقدام ، بحثاً عن منافذ النور"[٢].

وتبدو الكاتبة منذ بداية الرواية رابطة الجأش ، قويةً ، محددةً هدفَها ، مجدِّفةً بقلمها ، بحثاً عن منافذ النور ، لتنتصر على قيود العجز ، وتعجز الهزيمة ، بل تحاول تحويلها إلى انتصار حرف وقلب وفكر . ولا شك أن توافر مثل هذه الرؤية لدى أي كاتب يساعده على التمسك بتلابيب الفكرة التي يعالجها ، فتبدو شاخصة دوماً أمام عينيه ، لا تغيب في خضم الحبر الذي يكتب به ، مهما انسكب هذا الحبر أو تطاير هنا أو هناك ، فالخيط الروائي مشدود دائما بين شخصين : الكاتب في طرف ، والشخصيات التي تصنع الأحداث في الطرف الآخر ، ويظل الأمر هكذا حتى تعبر الفكرة عبر هذا الخيط نحو عقل القاريء فتقنعه بها ، ونحو قلبه فتمتعه بحرارتها ودفئها .

تتلخص الرواية في قصة خادمة إندونيسية فقيرة ، هي (سيتا) ، وفدت من بلادها لتخدم في أحد بيوت الأثرياء في مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية ؛ بلد الإسلام والمسلمين ، تاركةً خلفها أمها ، صغيرها ، زوجها ، أباها ، عالمها البسيط الذي لم يبارح مكانه في ذاكرتها ، بل ظل يسكن في كل زاوية من زوايا ذاكرتها .

وبعد وصولها لمنزل هذه الأسرة الثرية ، استقبلتها ربة المنزل ، وهي امرأة خمسينية ، تتمتع بقدر وافر من القسوة ، والتعجرف ، والتسلط ، فهي تستهلك تلك الخادمة استهلاكاً غير عادل لتقوم بأعمال التنظيف ، والكي ، والمسح ، والتلميع ، والترتيب ، والغسيل ، والطبخ ، وغيره من أعمال المنزل، وتبخل عليها بالطعام ، والراحة ، وتسبها دائماً بعبارات جارحة .

وعندما تتقابل بطلة الرواية مع أفراد المنزل ، تلاحظ تنوعاً في الميول والهوايات والصفات ، لكن الشيء الوحيد الذي يجمع بينهم جميعاً هو البعد عن الدين والتدين ، فهم ينامون حتى منتصف النهار ، ولا يستيقظون لأداء صلاة الفجر ، بل لا يحرصون على أي من الصلوات الخمس ، بما في ذلك الأم والأب ، وكأن الدين عندهم مجرد نسبة أتت مصادفةً ، ورحلت مصادفةً .

وظلت الخادمة تعمل ليل نهار في هذا البيت الكبير ذي الطابقين ، المتعدد الغرف ، المليء بأفخم أنواع الأثاث المتكامل ؛ من أسرّة ، وطاولاتٍ جانبية ، ومرايا ، وأرائكَ ، وسُتَرٍ ، وغيرها ، ولم يؤرقها خلال مدة عملها في هذا المنزل ، والتي استغرقت حوالي خمسة أشهر ، سوى أمرين ؛ أولهما: محاولة الشاب (خالد) التحرشَ بها ، ومراودَتها عن نفسها ، وإغراءَها بالمال والهدايا الذهبية ، كما كان يفعل مع الخادمة السابقة (ليتا) ؛ تلك الماجنة التي تخلَّتْ عن شرفها.

والأمر الآخر : عدم دفع هذه الأسرة أجرتها على مدى شهرين ، وعندما حدَّثت السيدة في الأمر ، غضبت وثارت ، بل زادت في التعنيف والصراخ في وجهها ، وهذا الأمر سبب للخادمة أزمة نفسية عارمة ؛ فزوجُها وأهلُها في إندونيسيا يحتاجون إلى المال ، وهي لا تريد أن تخبرهم بالحقيقة ، كما أنها تخشى أن يظنوا أنها تبخل عليهم بالمال .

وعندما يئست (سيتا) من الحصول على مستحقاتها المالية من تلك الأسرة القاسية قلوبهم ، قررت أن تمتنع عن العمل ، وأن تعتصم في غرفتها المهملة أعلى سطح المنزل ، فليس أمامها إلا أن تتوقف عن العمل ، حتى تحصل على حقوقها ، وظلت هكذا على هذه الحال ، غير مهتمة بتهديد السيدة بإعادتها إلى بلدها ، أو بإحضار الشرطة لها ، التزمت الصمت والعناد ، والامتناع عن الطعام، لولا أن الصغير (طارق) أحضر لها خبزاً ، وقطعاً من الجبن وتفاحة ، وألحَّ عليها أن تأكل .

وخلال هذا الصراع النفسي الرهيب بين الإصرار على الموقف ، والندم، والترقب ، تأتي لحظة الفرج ؛ إذ شاء القدر أن تطلب أسرة (إبراهيم) هذه الشغالة لتساعد الأم الحامل في أعمال المنزل ، وسرعان ما وافقت السيدة التي استقالت من الشفقة والرحمة ، وخلصت (سيتا) من آلامها وهمومها ، فأسرعت (سيتا) غير مصدقة لما يحدث ، فكأنها في حلم ، وبدت كطائرٍ جريح بدأ يستعيد عافيته .

وفي هذا المنزل غمرتها سعادة كبيرة وسط أسرة سعودية متدينة ، تقية ، تتقي الله في معاملتها ، فهم يتعاملون معها كإنسانة ، ويعطون لها أجرتها قبل نهاية الشهر ، فتسرع بإرسال المال لأهلها ، وكان أهم ما شغلها في هذا المنزل هو سلوك ذلك الشاب المتدين (إبراهيم) ؛ الذي تتوزع حياته بين الصلاة ، وقراءة القرآن ، وتصفح الكتب الدينية ، وتعلم العلوم الشرعية ، تلك هي السمات التي كانت تتوقعها بطلة الرواية في الشخصية السعودية .

وفي هذا البيت تعلمت (سيتا) المداومة على الصلوات الخمس ، وخاصة صلاة الفجر ، وتعلمت أن تضع غطاءً على رأسها أمام الغرباء ، كما حصلت منهم على مجموعة من الكتب الدينية عن الإسلام مكتوبة بلغتها ، فكانت أيامها تمضي في هذا المنزل كالحلم ؛ تغمرها سعادة نادرة ، ويملؤها عبق الإيمان ، وسحر القرآن الذي تستمع إليه خلسةً آخر الليل بقرب غرفة (إبراهيم) ، فضلاً على أن أعمال المنزل بسيطة وغير مرهقة.

ولهذا ، أحبت (سيتا) هذه الأسرة من كل قلبها ، وعملت بجدٍّ ، وأخلصت لهم ، ورأت فيهم عالماً آخر ، هو ذلك العالم الجدير بالأسرة السعودية التي تعيش على الأرض المقدسة ، وتَشْرُفُ ببيت الله الحرام ، وقبر النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ورفات صحابته الأطهار ، رضوان الله عليهم.

وتوالت الأيام ، إلى أن جاء ذلك اليوم الرهيب الذي هزَّ أركان أمريكا ، بل العالم أجمع ، وهو حادث احتراق برجي التجارة العالميين في الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ م ، حيث اختفى مرح الأسرة ، وبدا القلق والخوف

مخيماً على (إبراهيم) ، وأخته (سامية) ، ووالديه ، وبدأت الصحف والإذاعات تكيل التهم للإسلام والمسلمين ، وتحاول أن تلصق هذه الجريمة بأسامة بن لادن ؛ زعيم تنظيم القاعدة ، وسرعان ما اشتعلت الأحداث بإعلان أمريكا نيتها ضرب أفغانستان بدعوى القضاء على الإرهاب والإرهابيين المسلمين الذين يهددون مصالح أمريكا .

وتمضي الأحداث في تسارع ، والخادمة جزء منها ، فقد أصبحت تتفاعل مع هذه الأسرة المتدينة قلباً وقالباً ، تفرح لفرحها ، وتحزن لحزنها ، وامتلأت الأسرة حزناً عندما نوى (إبراهيم) السفر إلى أفغانستان للجهاد ، ولنصرة إخوانه المسلمين هناك ؛ حيث كان يؤمن بأن أفغانستان تمثل الإسلام بكل قوته ووضوحه ، وهي موطن الجهاد والمجاهدين ، ذلك الجهاد الذي يمثل للغرب مارداً لابد أن يموت ، وكان (إبراهيم) يؤمن بأن هذه الحرب هي ضد الإسلام .

وفي غرابةٍ شديدةٍ ، بل في إيمانٍ جمٍّ ، توافق أسرة (إبراهيم) على سفره للجهاد في سبيل الله ، طالباً الشهادة والجنة ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين . تقدم (إبراهيم) ، وجثا على ركبتيه ، وقبّل يدي أمه ، طالباً منها الموافقة على سفره ، ثم نظر إلى أبيه بعيون متوسلة راجية.

تعجبت (سيتا) الخادمة من فعلة (إبراهيم) : كيف يترك كل هذا النعيم ، وتلك الحياة المستقرة ، ليبحث عن الموت ، وكان تخيُّلُ هذا الأمر أكبَرَ من إدراكها ، لذا لاذت بالصمت ، وعرفت بعدها من إحدى رسائل زوجها أن أمريكا تزعم أن السعودية بها (إرهابيون) ، وأن كلمة (الإرهابيين) أصبحت تستخدم على نطاق واسع ، وهي تمثل الشريحة التي تريد أن ينصاع العالم كله لها بالقوة والعنف .

وفي الليلة الأخيرة قبل السفر ، لم ينم (إبراهيم) ، حيث رفع صوته بقراءة عذبة للقرآن ، ونشر الخشوع والسكينة في أرجاء المنزل ، وظل يقوم الليل حتى وقتٍ متأخرٍ ، مناجياً الله تعالى ، وفي الصباح كان الوداع ؛ حيث

احتضن (إبراهيم) أمه وقبَّل رأسها ويديها ، ثم قبَّل رأس أبيه ، وسلَّم على أخته، موصياً إياها بمكتبته ، طالباً منها ألا تهجرها ، وأن تعمرها دائماً وتحييها بذكر الله ، والصلاة ، وتلاوة القرآن .

وكم كانت (سيتا) متعجبةً من صمود أم إبراهيم ؛ تلك المرأة التي امتلأ قلبها بنور الإيمان ، وقوة اليقين ، فقد استهانت بالدنيا ، واستعظمت الآخرة ، وحمدت (سيتا) الله على أن أنعم عليها بالتعرف على هذه أفراد الأسرة ، الذين فتحوا أمامها أبواباً مغلقة من جوانب الحياة ؛ أهمها أنها تعلمت منهم " كيف تكون معرفة الله سلوكاً وتصرفاً ، وعقيدة يحيا بها الإنسان ، وأشياء عملية تحسها في كل شيء حولك ، من التعامل البسيط إلى الطاعات التي تبهرني ، إلى لذة العبادة التي تجعلهم وكأنهم يحيون في كوكب آخر ، بعيداً عن كل ملوثات الحياة ؛ تلك الحياة التي أصبحت سعاراً محموماً ، وبشعاً "[٣].

ومرت عدة أيام ، واتصل إبراهيم وأخبر أسرته أنه على حدود أرض الجهاد ، وأنه بخير ، ثم انقطعت أخباره ، وعاد الترقب والخوف يخيم على أرجاء الأسرة ، فكل يوم يمر تزداد معه وحشية هذه الحرب ، وجاء شهر رمضان ، وكان هناك أمل بتوقف الحرب فيه ، لكن أمريكا لم تفعل ، واستمرت الحرب بكل وحشيتها ، فسقطت المدينة الرئيسة تحت وطأة القصف العشوائي ، وانتشر الدمار ، والتشريد والموت ، وهرب المجاهدون للاحتماء بالجبال ، ولم يعد هناك أي حضور للفرح في المنزل منذ سفر (إبراهيم) ، ورغم هذا كان الجميع في حالة من التسليم والرضا ، والرجاء والدعاء الذي لا ينقطع .

واعتقلت أمريكا الكثير من المحاربين ، واتهمتهم بالإرهاب ، ونقلتهم إلى سجن بعيد في كوبا يسمى (جوانتانامو) ، وأعلنت بأنهم سيظلون هناك كسجناء حرب . وملأت اللوعة والحزن قلب الأسرة ، خشية أن يكون (إبراهيم) أحد هؤلاء السجناء ، ولكن قوة إيمانهم بددت مخاوفهم ، وقالوا بأنه إن كان معهم سجيناً ، فليرزقه الله الصبر ، وإن كان مقتولاً ، فهو شهيد بإذن الله.

وخلال هذا الجو المشحون بمشاعر الألم والشوق إلى (إبراهيم) ، رزقت هذه الأسرة بطفل صغير أسموه (محمداً) ، وكان هذا الخبر الجميل نذير فألٍ ، ومصدرَ سعادةٍ وفرحٍ للجميع ، حيث كان هذا البيت بحاجة إلى تغريد عصفورٍ صغير ، فقد كان شكله جميلاً ، وكانت ملامحه بريئة وحالمة.

ويأتي اليوم الأخير من مذكرات (سيتا) ، حيث غلبها الحنين إلى ابنها الصغير ، وزوجها ، وأبويها ، وقررت أن تربي هذا الابن عقب رجوعها على منهج هذه الأسرة الطيبة ، وعند أوان العودة تملكتها مشاعر مختلطة ، فساعة تشعر بالفرح ؛ لأنها عائدة إلى وطنها وأهلها ، وساعات يسيطر عليها الأسى والحزن ؛ لفراق أهل هذا البيت الطيب .

وتطلب (سيتا) من (سامية) أن تذهب معها إلى السوق لشراء الهدايا والأشياء الجميلة لأهلها في إندونيسيا ، وكلما اقترب وقت رحيلها ، يشتد حنينها ويتضاعف ، وتمضي أوقاتاً طويلة أمام حقائب السفر . وقد أيقنت أنها مهما حازت من مالٍ ، أو هدايا ، أو مكتسباتٍ ماديةٍ في ظل هذه الأسرة السعودية المتدينة ، فإن ذلك كله لا يمكن أن يضاهَى بما اكتسبته من عزيمةٍ قويةٍ ، وقلبٍ أقوى إيماناً ، وأيامٍ يتردد في جنباتها قرآن (إبراهيم) ، وابتهالات (سامية) ، ويقين الأم ، وأصوات الحرب التي لم ولن تنتهي قريباً .

وفي النهاية تساءلت : هل أعود قبل أن يعود إبراهيم ؟ وهل يأتي اليوم الذي يعود فيه ؟ وبالطبع لم تتلق أية إجابة ، وكذلك تركت الكاتبة نهاية الرواية مفتوحة على مصراعيها ، تاركةً الظروف والأيام تضع النهاية المناسبة لها .

- ٣ -

يقوم البناء الروائي في هذه الرواية على فكرة " اليوميات " ، أو تسجيل الأحداث وفقًا للأيام التي وقعت فيها ، وهذا التسجيل لا يأخذ شكلاً مسلسلاً مطَّردا ، ولكنه يأتي متعرجًا ، أو يمضى في خط منكسرٍ أو متعاكسٍ ، يبدأ من النهايات ثم يعود إلى البدايات ، أو أواسط الأحداث ، أو يقترب من هذه أو تلك ، وفقا لمحاولة الكاتبة شدَّ القارئ إلى شخصيات الرواية وتطوّرها ، وما جرى لها من مواقف ، تصب في بناء الحبكة الروائية .

فكل يومية في الرواية تمثل فصلاً يُضيء ملامح شخصيةٍ ، أو أبعادَ حدثٍ ، أو يشير إلى مكان ، ولذا نجد الرواية تبدأ في يومها الأول مع قدوم بطلة الرواية (سيتا) إلى هذا البيت الكبير لتلك الأسرة الغنية ، وشخوصها أمام وجوهٍ غريبة ، ونظراتٍ متفحصةٍ ، بينما تفوح من داخلها رائحة بلدها ، وأهلها، وعالمها البسيط ، وهي يومية تعطينا صورة الشخصية الرئيسة للرواية ومحورها؛ أعنى " سيتا " ؛ التي تظهر ملامحها خلال الرواية ، وتتضح شيئاً فشيئاً ، بأنها فتاة إندونيسية فقيرة ، حضرت من مشرق الشمس – إندونيسيا – لتعمل خادمة لدى أسرة غنية في المملكة العربية السعودية ، وهي فتاة متزوجة، ولديها طفل صغير ، جاوز الفطام بقليل ، يعيش بصحبة زوجها ووالدتها ووالدها ، كما أنها على قدر كبير من الجمال ، كي تتباهى بها تلك الأسرة أمام الضيوف!

و تمثل (سيتا) الخادمة هموم قطاع كبير من الخادمات الآسيويات والإفريقيات اللائي تجلبهن شركات العمالة السعودية كي يخدمن في بيوت الأسر الغنية ، أو يعملن في قطاعات العمل الأخرى ، وقد عالجت الكاتبة من خلال هذه الشخصية كثيراً من مشكلات نظيراتها بشكلٍ واقعيٍ دقيق ، فدخلت بنا خلف جدران البيت السعودي ، وما يدور بداخله من أحداث ، وما يؤثر فيه من أفكارٍ ، وعاداتٍ وتقاليد ، وكيف تتعامل تلك الأسر مع هؤلاء الخادمات .

وبدأت الكاتبة بالوجه السلبي القاتم ، والذي ظهر من خلال خدمة (سيتا) لدى الأسرة الأولى في مدينة الرياض ، فهي أسرة مفككةٌ ، غارقةٌ في المادية ، انغمس أفرادها في ملذات الحياة حتى أسفل آذانهم ، يبدو الأب في هذه الأسرة "كيس نقود" يلبي للأسرة كل ما يحتاجونه من مأكل ، وملبس ، ومتاع ، دون أن يلوي بالاً لتربيتهم على طاعة الله ، أو لعلاقاتهم الاجتماعية ، أو لسلوكياتهم في الحياة ، لأنه هو نفسه منغمس في ملذاته ، مغيَّبٌ عن الواقع بمعاقرة الخمر باستمرار ، لا يحب أولاده ، وهم يبادلونه نفس المشاعر ، بل إنه حينما قرر السفر ذات يوم ، بدا الأولاد مرتاحين لبعده عن البيت ، لدرجة

أن إحدى الفتاتين رددت على مسامع أمها : " مدام أن أبوي ترك لنا فلوس هذا أهم شي ... ما يبقى مكان في الرياض إلا ونروح له ... وسِّعي صدرك يمه ترى كل الناس على ذي الحال "[٤]، وتساندها الأخت الأخرى (عهود) قائلة : " صادقه يمه ... لو تشوفين أمل صديقتي ... ما تشوف أبوها إلا مرة أو مرتين في السنة "[٥] . والأدهى والأمرُّ من ذلك ، أن هاتين الفتاتين لا تكترثان لحزن الأم وشعورها بالإحباط لسفر الأب ، بل إنهما تحاولان أن تجعلا من سخط أمهما على سفر أبيهما طريقاً للعبث واللهو ، فكلتاهما بلا قلب ، ولا يشغلهما سوى تحقيق رغباتهما الشخصية الجامحة.

وعبر هذه اليوميات أو " الفصول " تقدم الرواية أحداثًا أساسية صنعت علاقاتٍ حادةً أو ناعمةً بين الشخصيات ، ومنها علاقة الشاب (خالد) بالخادمة السابقة (ليتا) ؛ تلك التي كانت تعرف كيف تتعامل مع هذه الأسرة المتسلطة ، " فقد كانت ذكيةً ، لكنها كانت ماجنةً تنفذ لخالد كل ما يريد مقابل المال ، وهناك الكثير من هم مثلها " ويظهر هذا من قول أحد أصدقاء (خالد) له عندما رأى (سيتا) : " ما حد قدك ، عندك ذا الأشكال الحلوة !الله يذكر أيام ليتا بالخير " ، وهي عبارة تحمل في طياتها مضامين كثيرة ، أبلغ من التصريح بها.

وعلى النقيض من ذلك ، تنشأ علاقة كرهٍ بين البطلة (سيتا) والشاب (خالد) ؛ حيث كانت تتوجس منه خيفةً من أول يوم رأته فيه ، حين فتح الباب فجأة ، ووقف أمامها مبتسماً ، فأدارت له ظهرها ، ونزلت مسرعة ، وفي المرة الثانية حينما صعد إلى السطح ، ودخل عليها ، وجلس أمامها على الطاولة ، وقال مبتسماً بكل برود : " ليش أنتي خوف ... شوف أنا جيب هدية حق أنتي"، ثم قدم لها خاتماً ذهبياً رائعاً قائلاً : " هاه...حلو ... هذا عشان نصير أنا وأنتي صديق ... أنتي حلوة سيتا " ، ثم اقترب منها ، فنهضت واقفة ، ودفعته بعيداً عنها ، فوقف بعيداً ، وأخذ يضحك ويقول : " خلاص ... خلاااااص ... الهدية لك ... باي " .

وفي المرة الأخيرة ، وقبل رحيلها عن هذا المنزل ، وفي أثناء اعتصامها بغرفتها وامتناعها عن العمل ؛ اعتراضاً على تأخير دفع أجرتها ، صعد (خالد) إليها ، وأخرج من جيبه أوراقاً نقدية كثيرة ، قائلاً : " أنت تبين فلوس ... خذي ... أمي تقول إنك تبين فلوس ... هاذي الفلوس قدامك سيتا هاذي كلها لك " ثم اقترب منها محاولاً اغتصابها ، فلوحت بمقص في وجهه ، فقال : " سيتا ليش أنت كذا ... أنا زي أخوك ... خسارة ... خسارة يا سيتا تروحين من بين يدي " ، فصرخت في وجهه بصوت عالٍ : " برة ... روح " ، فضرب الأرض بقدميه بكل سخط ، ثم ولى هارباً .

وعلى النقيض من هذه العلاقة ، تنشأ علاقة روحانية نقية بين (سيتا) ، و(إبراهيم) ؛ ذلك الشاب الذي سارع بوضع يديه على وجهه ، عندما دخلت عليه سافرةً في بيت السيدة الأولى حاملةً القهوة ، وغطَّى عينيه قائلاً : " لا حول ولا قوة إلا بالله ... لا حول ولا قوة إلا بالله " ، ثم ازدادت محبتها لسلوكه المتدين ، عندما انتقلت للخدمة في بيت والدته ؛ واستمعت قراءته للقرآن ، ورأت قيامه الليل للصلاة بكل خشوعٍ وإيمان ، وكانت هذه العلاقة الروحانية من طرف واحد ، وهو (سيتا).

كما نشأت علاقة أخرى نقيةٌ بريئةٌ بين (سيتا) ، وبين الطفل (طارق) ؛ ذلك الذي كان يملأ البيت مرحاً وفرحاً ، وكانت تقضي معه أوقاتاً طويلة تلاعبه ، وتسليه ، وهو الذي حزن لفراقها عندما انتقلت للخدمة في بيت أم إبراهيم ، وكان قلبها يتمزق حزناً لفراقه ، حينما جرى خلفها مودعاً إياها بقوله : : مع السلامة سيتا ... مع السلامة " ، وربما أجَّج هذه العلاقة العاطفية بين (سيتا) و(طارق) صغرُ سنِّه ؛ حيث كان يذكِّرها بطفلها الوحيد الذي تركته وهو ما زال برعماً يتفتح .

وأخيراً تنشأ علاقة تأملٍ وتدبّرٍ بين (سيتا) وبين منظر السماء والنجوم ، فعندما كانت تخدم لدى الأسرة الأولى ، كان سكنها على السطح ، وكانت غرفتها شديدة الحرارة بعكس المنزل الذي كانت البرودة تعمه ، لذا قررت

النوم في الخارج ، حيث سطح البيت الفسيح ، ونقلت الفراش ورتبته ، ووضعت رأسها على الوسادة ، وفتنت بمرأى السماء والنجوم ، وسادها شعور بالسكون . ولم تفتقد بطلة الرواية عندما رحلت عن هذا البيت الكبير – أو الكئيب كما أطلقت هي عليه - سوى شيئين ؛ أولهما : الطفل (طارق) ، والآخر منظر الليل المرصع بالنجوم ، وضياء القمر ، حيث اعتادت على هذا المنظر الساحر ، ففي بيت أم إبراهيم كانت الغرفة المخصصة لها تقع في الطابق الأرضي بجوار المطبخ .

وتعتمد الرواية على بعض الشخصيات الهامشية لتكشف عن فساد بعض جوانب الحياة الاجتماعية في المجتمع السعودي المعاصر ، مثل شخصية الخادمة السابقة (ليتا) الماجنة التي أسهمت هي ونظيراتها في إفساد المجتمع ؛ لأنها كانت تروج للرذيلة ، وتنفذ لخالد كل ما يريده مقابل المال . وهناك أيضاً خادمات أخريات تنشأ بينهنَّ وبين أرباب المنازل علاقات محرمة على هامش خدمتهن ، مما يؤدي إلى تفكك كثير من الأسر ، ويفسِّخ علاقات المودة والرحمة بين الأزواج والزوجات . وهناك خادمات يلجأن للسحر ، اعتقاداً منهن في قدرته على كفِّ الأذى ، وتسخير تلك الأسر القاسية التي يتعامل أربابها معهن بكل قسوة ووحشية . وهناك شخصية الفتاة (أمل) ؛ إحدى صديقات (عهود) تلك التي لا ترى أباها سوى مرة أو مرتين في السنة !

وعندما عاد السيد الحاضر الغائب من السفر ، كان استقبال الجميع له فاتراً ، ولكن بدا أنه لم يهتم للأمر! مما يؤكد أن هذا سلوك معتاد داخل هذه الشريحة من المجتمع !

أيُّ حضارةٍ مقيتةٍ تلك التي تمزق لبنات الأسرة ، وتضع حواجز خرسانية صلدة بين أفرادها الحميمين ، وتؤجج عداوة غير مباشرة بين الإنسان وبين نفسه ، وبينه وبين ربه ، فيصير يلهث ، دون تردد ، وراء حاجات نفسه الأمَّارة بالسوء ، وعلى الطرف الآخر يمعن في إفساد العلاقة بينه وبين خالقه ، فلا يخطر بباله أن يصلي ، أو يزكي ، أو يقرأ القرآن ؟!

ولـذا فـإن بطلـة الروايـة تعبـر بحـسرةٍ عـن ذلـك النمـوذج العجيـب للأسـر السعودية ، الذين أخذوا من الحضارة أسوأ ما فيها ، بقولها : " هنا خالد بكل وحشيته ... هنا السيد الحاضر الغائب ... هنا الفتيات المغرورات ... والسيدة القاسية ... هنا السعودية "[٦].

فهـذه العـادات ، مـن غيـر شـكٍ ، دخيلةٌ على المجتمع السعودي المعاصـر ، حيث إن الاحتكاك الاجتماعي بأجناس المجتمعات الأخرى ، وخاصة العمالة الوافدة من كل صوب وحدب ، قد أثر ، في أغلبه ، تأثيراً سلبياً على عادات المجتمع السعودي وتقاليده ، وربما يذكرنا هذا بتأثير الجواري والقيان على جوانـب الحيـاة الاجتماعيـة كافـة فـي العـصر العباسـي ، نظـراً لكثـرتهن ، وتنـوع أجناسـهن، وانحـراف سـلوك بعـضهن ، واخـتلاف ثقـافتهن عـن ثقافـة المجتمـع العربي آنذاك .

- النزعة الدينية -

تبدو النزعة الدينية في الرواية واضحة للقاريء من أولها إلى آخرها ؛ حيث ركزت عليها الكاتبة محوراً رئيساً في الرواية على المستويين النظري ، والعملي ، بدءاً من الفرحة الغامرة لبطلة الرواية (سيتا) الإندونيسية بخدمتها في السعودية ؛ بلد الإسلام والمسلمين ، حيث إن هذه الأرض الطاهرة تعني الكثير لكل مسلم أينما كان ؛ فهي بلاد النور ، والحق ، والدين.

ومن براعة الكاتبة أن فكرتها الرئيسة تلك لم تفلت من بين يديها قط ، ومن ثمَّ لم تغب عن أعين القاريء ، في أي فصلٍ أو يوميةٍ من يومياتِ الرواية ، فقد ظل الدين أشبه بالخيط الشعوري أو الروحي المتين ، الذي يلوِّن أحداث الرواية من أولها إلى آخرها ، برغم تعدد الخلفيات الاجتماعية التي تصف لنا سمات المجتمع السعودي ، من خلال هاتين الأسرتين المختلفتين كل الاختلاف في الاهتمام بالدين كموجِّهٍ للسلوك ، وكذا تعدد الهموم الذاتية لفئة من العمالة الآسيوية الوافدة للعمل في المملكة العربية السعودية ؛ وهي فئة الخادمات (أو الشغالات) .

ويلاحظ أن الكاتبة قد اعتمدت تقنيةً روائيةً مهمةً للغاية ، لتكسب رؤيتها عمقاً فنياً ، ونضوجاً في آن معاً ؛ ألا وهي تقنية التناقض أو الصور المتعاكسة (**Contrast**) ، التي ظهرت بوضوح من خلال الموازنة بين شخصية الشاب (خالد) المنحرفة في الأسرة الأولى ، وشخصية الشاب (إبراهيم) المتدين في الأسرة الثانية ، وكذا الموازنة بين شخصية كل من الفتاتين (عهود ، و مها) المغرورتين ، واللتين سيطر عليهما الشيطان ، فأنساهما ذكر الله ، وأنساهما الصلاة ، وقراءة القرآن ، في الأسرة الأولى ، وبين شخصية (سامية)؛ تلك الفتاة المتدينة المحتشمة الأنيقة في غير تكلفٍ في الأسرة الثانية ، والتي تحرص على الصلاة لوقتها ، وقراءة القرآن بشكلٍ يومي . كما ظهرت هذه التقنية بوضوح في الموازنة بين هاتين الأسرتين اللتين تربطهما وشائج قربي ، ورغم ذلك فإنهما مختلفتان في طريقة الحياة ؛ حيث إن الأسرة الأولى تقنَّعت بقناع الحضارة الزائفة ، وكشفت عن طبيعتها الأمَّارة بالسوء ، فضاعت هويتها الدينية والعربية ، فلم تعد تمثل الأسرة السعودية الطاهرة التي تحافظ على هويتها العربية والإسلامية ، في حين تمسكت الأسرة الأخرى بعرى الدين ، وأخذت من أسباب الحضارة الجديدة بحرصٍ وانتقاء ، وبما يتناسب مع الدين والعادات والتقاليد ، ووضعت الله نصب أعينها في كل تصرفاتها وسلوكياتها .

ثم لا ننسى هذه الموازنة الناعمة بين شخصية الطفل (طارق) البريئة النقية ، وبين شخصية الشاب (إبراهيم) المتدين ؛ فطارق يقول : " أنا إذا كبرت أبروح للمسجد وأصلي ، وأصير زي ولد خالي إبراهيم " ، وكذا الموازنة العاطفية بين (طارق) وبين ابن البطلة ؛ الذي تركته في أحضان والده ، فقد ارتبطت بطلة الرواية بكليهما ارتباطاً عاطفياً ، حيث خفف وجود طارق كثيراً من لوعتها ، بسبب شوقها وحنينها لولدها ، كما أن روحه المرحة أضفت جواً مريحاً من السعادة على نفسها .

بدأت النزعة الدينية تظهر بوضوح في أول الرواية ، حينما حان وقت صلاة العصر ، فلاحظت (سيتا) أن جميع من في البيت نائمون ، فتعجبت ، وتساءلت

في نفسها : " لماذا لم يستيقظوا للصلاة ؟! " ثم انهمكت الكاتبة مع البطلة في سرد الأحداث اليومية ، حيث انشغلت (سيتا) بتنظيف الغرف ، وأعمال الطبخ ، وعدم استساغتها طعم تلك القهوة السعودية الغريبة !

ومن اللافت للنظر أن (سيتا) كانت حريصةً على أداء الصلاة لوقتها ، برغم أنها لا تجيد اللغة العربية ، ولا تعرف عن مباديء الإسلام سوى القدر اليسير ، فقد استيقظت من أول يوم على صوت النداء البهي لصلاة الفجر، بينما جميع أفراد المنزل يغطّون في سبات عميق ، وامتلأت سعادةً بسماع أصوات المآذن وهي تتشابك، وتنشر الخشوع في أرجاء المكان ، وتدخل السكينة إلى أعماقها.

وتعود لتظهر من جديد ، حينما ذهبت (سيتا) مع الأسرة إلى "الاستراحة" ذات المسبح الكبير ، المحاط بمساحة واسعة من العشب الأخضر ، وأحواض الزهور، وكانوا قد جهزوا حفلاً كبيراً ، دعوا إليه أصدقاءهم وأقرباءهم ، وهناك رأت (سيتا) بعض الحاضرين يؤدون الصلاة ، فحمدت الله كثيراً .

ثم تظهر تلك النزعة أيضاً بشكل غير مباشر في رد فعل الشاب المتدين (إبراهيم) حينما رأى (سيتا) دون غطاء رأس ، فأشاح بوجهه بعيداً ، وغطى وجهه ، ثم انظر إلى تعليق الكاتبة على هذا التصرف من خلال حوار بعض أفراد الأسرة الأولى:"يمه هذا واحد معقد...متخلف ... ما يفهم في الإتيكيت ! الأم : لا تقولين عن ولد خالك هالحكي...إبراهيم الكل يشهد بأخلاقه العالية . مها : أمي صادقة ... إبراهيم أخلاقه جداً عالية ... بس انه متشدد شوي ... بعدين أنا متوقعة يا عهود إنه يمكن يخطبك .

ثارت عهود : وأنا ناقصة ، أنا أبي واحد يوسع صدري ويدللني ... واحد عنده فلوس ... يخليني ألبس على كيفي ... وأروح وأجي على كيفي "

ويتضح لنا من خلال هذا الحوار كيف أن الحياة المادية قد غيرت نظرة هذه الأسرة إلى الدين والتدين ، وأن الدين لم يعد هو معيار الاختيار أو الحُسن ، بل إن الفرد منهم غير مشغول سوى بتزيين شكله ، والتقنع بقناع الحضارة المادية الزائفة ، بما فيها من بريقٍ خادعٍ ، وطلاءٍ هشّ .

وتتدرج هذه النزعة في التصاعد من خلال شخصية (سيتا) ، حيث تخرج عن صمتها ذات مرة ، وتسأل (طارق) :" لماذا لا تصلون ؟"

فيجيب : " ما أدري .. أنا إذا كبرت أبروح للمسجد ، وأصلي ، وأصير زي ولد خالي إبراهيم "

ثم ينتقل حديث البطلة إلى (إبراهيم) ذي الوجه البشوش ، الذي أرسل لسيتا مجموعة من الكتب الرائعة التي تتحدث عن أصول الإسلام ، وشرائعه ، ودور المرأة في مجتمعها ، وكتاباً آخر في العقيدة .

إذاً ، فإن تلك النزعة بدأت تتدرج وتتصاعد من مجرد سلوكٍ عامٍ للفرد ، إلى فعلٍ تمثَّلَ في الحرصِ على أداء الصلوات لوقتها ، والتعرفِ على أصول الإسلام والعقيدة .

ومن براعة الكاتبة أنها اختارت "الصلاة" بؤرة فكرية ركزت عليها ، لتكشف عن مدى أهمية هذا الركن الرئيس من أركان الإسلام في بناء المجتمعات ، والمحافظة على هويتها الإسلامية ، كيف لا ، والصلاة هي عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها ، فقد ترك الدين .

كما اعتمدت الكاتبة على تقنية المفارقة **(Anachronism)** ؛ حين جعلت هذه الخادمة غير العربية تتمسك بالصلاة ، وتفرح بقراءة القرآن ، وتأنس بسماع الأذان ، بينما لا يتذكر أبناء تلك الأسرة القاسية قلوبهم أن هناك فرضاً واجباً عليهم كمسلمين اسمه الصلاة ، ولذا تتساءل البطلة مستنكرة هذا السلوك منهم : " ولكن ماذا أتوقع من أناسٍ لا يصلون؟ نعم ، كان أبي يقول : الصلاة هي التي تعصم الإنسان من الزلل " .

فعلى الرغم من استغراق هذه الأسرة وقتاً طويلاً في الإعداد للحفلات ، والجلوس أمام التلفاز ، والرقص ، وسماع الموسيقى الصاخبة ، والتسوق والترفيه ، والنوم حتى منتصف النهار ، فهم يبخلون على خالقهم ببضع دقائق من وقتهم ، يؤدون فيها الصلاة الواجبة ، أو يقرأون بعض آيات من كتابه الكريم .

وتتساءل الكاتبة ، بل البطلة في دهشة عن حال هاتين العائلتين : " ترى أيهما يمثل هذا المجتمع : هذا البيت الكبير بكل ما فيه من تجاوزات ، أم بيت إبراهيم ، الذي كان على النقيض ، وما الذي جعل هذا الفرق يظهر جلياً واضحاً بين العائلتين ، رغم ما بينهما من وشائج القربى؟! "

ثم تتطور هذه النزعة في الرواية بانتقال (سيتا) للخدمة في بيت أم إبراهيم؛ تلك التي ابتسمت عندما رأتها ، وناولتها وشاحاً ، وقالت لها : " هلا بك يا سيتا ، اسمعي هذا الغطاء تحطينه على راسك إذا كان فيه في البيت رجال ، أنتي في المطبخ أو في غرفتك على راحتك ، بس إذا فيه أحد لا ، قولي إن شاء الله "[٧] .

فقد أعلت الكاتبة من شأن الحجاب ، أو غطاء الرأس للمرأة ، فهو رمز للحشمة ، وعلامة على الوقار ، وقد فهمت (سيتا) من خلال توجيهات الأم أنها تريد المحافظة عليها .

وتشيع نفحاتها وتسري في الرواية في جنبات هذا البيت المتدين ؛ بيت أم إبراهيم ، حيث يستيقظ الجميع لأداء صلاة الفجر ، ويمتليء البيت طمأنينة بقراءة إبراهيم للقرآن بكل خشوعٍ ، فهو يرتل القرآن بصوتٍ رخيمٍ ، وكأنه يسبح في ملكوت الله ، ويرفرف في سماء من الإيمان والنقاء ، مما أصاب (سيتا) بنوع من الرضا والسرور والسكون ، بل السحر الإلهي ، الذي يختلف عن ذلك السحر الشيطاني ، الذي يلجأ إليه بعض الناس لإلحاق الأذى بالآخرين .

وتظهر أيضاً من خلال سماع أذان الفجر في هذا البيت المبارك ، حيث يصير البيت في حركة ونشاط ، لا نومَ ولا سُبات ، يردد الأب بصوتٍ عالٍ : " لا إله إلا الله ، اللهم صلِّ وسلِّم على محمد " . وتصف الكاتبة هذه العائلة التي تنعم برضا الله خير وصف ، بقولها على لسان (سيتا) : " تحلَّقت العائلة حول الإفطار ، كان هناك سوارٌ من الود يحيط بهم ، إنه رضا الله ، يتمثل لك شعوراً غريباً تستشعره ، ولكن لا تعرف كيف تصفه " .

ومن مظاهر تلك النزعة الدينية كذلك حرص (إبراهيم) على تعلم العلوم الشرعية ؛ كالحديث والتفسير ، وعلوم القرآن ، ووجود مكتبة دينية بالمنزل ، تزخر بكتب علوم الدين الإسلامي ، وأصول العقيدة ، يغذون منها قلوبهم وعقولهم ، ويجددون بها إيمانهم .

كذلك تظهر تلك النزعة في قيام (إبراهيم) الليل وصلاته بخشوعٍ شديد ، وبكائه بين يدي الله تعالى ، فهو يبكي بكاءً شديداً بكل ضعفٍ وانكسار ليلاً ، برغم مرحه الذي لا ينقطع بالنهار ، وهذا هو المثال الذي أرادته الكاتبة للشخص المسلم في السعودية ، وفي غيرها من بقاع العالم الإسلامي ؛ الشخص الذي كلفه الله تعالى بقوله :(وابتغِ فيما آتاك الله الدارَ الآخرة ، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ، وأحسنْ كما أحسنَ اللهُ إليك ، ولا تبغِ الفسادَ في الأرض ، إنَّ اللهَ لا يحب المفسدين)[٨] .

ثم تصل تلك النزعة إلى ذروتها في آخر أحداث الرواية التي تطورت سريعاً في بيت إبراهيم ، حيث تحترق بنايتا التجارة العالميتان في أمريكا ، وتعلن أمريكا الحرب على الإرهاب ، وموطنه أفغانستان ، ويفهم (إبراهيم) أنها ليست حرباً على الإرهاب ، بل حرباً على الإسلام ، ثم يعلن رغبته في السفر إلى أفغانستان للجهاد في سبيل الله ؛ باعتبار أن أفغانستان تمثل الإسلام بكل قوته ووضوحه ، وهي أرض الجهاد الحق ؛ فالجهاد هو ذلك المارد الذي يخيف الغرب ، ولذا فلابد أن يموت .

وتضرب أمريكا أفغانستان لهدفين ؛ أولهما : القضاء على الجهاد والمجاهدين ، والآخر : أن تؤكد للكلاب التي تنبح وراءها أنها الأسد الوحيد في الغابة ، أي لتفرض سطوتها على العالم بأسره .

ولم تتجسد تلك النزعة في سلوك شخصيات الرواية فحسب ، بل ظهرت بوضوح في لغة الكاتبة ؛ تلك اللغة التي تميزت بمفرداتها السهلة القريبة من أذهان جميع القراء ، ونلاحظ تكرار عبارات معينة كثيرة ، ترددت

على لسان (سيتا) تكشف عن هذه النزعة ، من أول الرواية إلى آخرها ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

- قول (سيتا) في أول الرواية : " السعودية بلد الإسلام والمسلمين ، إن هذه الأرض الطاهرة تعني الكثير لكل مسلم ، أينما كان " .
- " استيقظت على صوت النداء البهي لصلاة الفجر ، وكم كانت رائعةً أصوات المآذن وهي تتشابك ، وتنشر الخشوع في أرجاء المكان " .
- " كان وقت العصر قد دخل ، وكان جميع من في البيت نائمين ، صعدت إلى غرفتي وشرعت في الوضوء والصلاة ، وتعجبت : لماذا لم يستيقظوا للصلاة ؟! "
- قول (سيتا) سائلة (طارق) : " لماذا لا تصلون ؟ "
- " ولكن ماذا أتوقع من أناس لا يصلون ؟ نعم كان أبي يقول : الصلاة هي التي تعصم الإنسان من الزلل ، ولقد زادتني كتب إبراهيم بصيرة وتقرباً إلى الله " .
- قول (طارق) لسيتا : " سيتا شوفي هديتي من إبراهيم ، بندقية ، إبراهيم يقول لازم تصير مجاهد إذا كبرت " ، ثم تعقيب (سامية) على كلامه بقولها وهي تبتسم : " لا يا طارق ، مو مجاهد بس ، قائد المجاهدين بعد " ثم يضحك (طارق) قائلاً : " بس أخاف يقتلوني وأموت " ، فترد (سامية) : " أحسن شي إذا مت تروح الجنة ! "
- " اقتربت أكثر لأعرف ماهية الصوت ، إنه لم يكن إلا إبراهيم ، كان يقرأ القرآن ، يا له من صوت رخيم ، تملَّكني خشوع عجيب ، ورهبةٌ لم أعرف سرها ، لم يكن يقرأ ، كان يرتل ، كان يسبح في ملكوت الله، كان يرفرف في سماء من الإيمان والنقاء " .
- " على أذان الفجر كان في البيت حركة ونشاط ، صوت الأب يردد بصوت عالٍ : لا إله إلا الله .. اللهم صلِّ وسلم على محمد " .

- قول أم إبراهيم لابنتها (سامية) : " الحرام يا بنيتي أننا نبخل بأنفسنا على نصرة هذا الدين ، الحرام أنك تعبد الله في الرخا ، وتنساه في الشدة ، الحمد لله أني شفت أخوك في هالموقف ، الحمد لله " .
- " نظرت رأيت إبراهيم قد فرش سجادة على الأرض ، وتوجه إلى القِبْلة ، وبدأ في الصلاة ، كان ظهره إليّ ، وهذا من حسن الحظ ، راقبته كان يصلي بخشوع شديد ، ويطيل في السجود ، وعندما انهمك في الصلاة بكى ، كان يدعو وهو يبكي ، ويسجد وهو يبكي ، حتى أبكاني معه ، وعجبت إلى مرح النهار وقوته ، كيف تتحول إلى ضعف وانكسار في الليل عندما يقف إبراهيم أمام الله " .
- حوار (إبراهيم) مع أخته (سامية) : " سامية الجنة تبي عمل ، وأنا حلمي الجنة " ، فترد سامية : " وحلم أمي أنها تزوجك ، وتشوف عيالك ، وحلم أبوي أنه يلقاك جنبه ، وحلمي أنا أنك تظل أخوي وتاج راسي " .
- عبارة أم إبراهيم لزوجة أخيها : " القوي هو الله يا أم خالد " .
- قول إبراهيم لأبويه طالباً موافقتهما على سفره للجهاد في أفغانستان : " يمه .. يبه : طبعاً ما راح أروح إلا برضاكم ، أرجوكم ، إنكم تحرموني من تحقيق حلمي ، حلمي الشهادة ، الجنة ، العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، الله يجعلني منهم ، وأموت بكرامتي وعزتي ، هذا هو الامتحان الحقيقي ، وهذا وقت التضحية ، أنتم اللي ربيتوني على الدين ، والشجاعة ، وقال الله وقال الرسول " .
- " اقتربت ونظرت ، إنها سامية ، في مكان إبراهيم ، وعلى سجادته ، وبين يديها قرآنه ، كانت تقرأ وهي تغالب البكاء ، أحياناً يعلو صوت بكائها ، وأحياناً صوت تلاوتها " .

- " ومن يبحث قليلاً لابد أن يكتشف أن أمر الكون أعظم وأجلّ ، وأن جنة هؤلاء الناس في صدورهم ، وأن لهم منهل لا ينضب ، ومداد لا ينفد ، إنها ذكر الله ومعرفة رب هذا الكون ، وكيف يترك داخل الإنسان ذلك الأثر العجيب ، والأفق الذي لا يحد من الإحساس بالسعادة والطمأنينة ، واليقين الذي يحول كل مصاعب الحياة إلى لا شيء " .
- " إن الصلاة هي الطريق إلى النصر ، نصري على نفسي ، قبل كل شيء، ثم نصرنا نحن المسلمين ، نعم يجب أن أصلي ، يجب " .
- " لماذا لا أصلي مثلهم ، يوماً ما لابد أن أفعل ، إنهم يقبلون على الصلاة كإقبال الناس على الحياة " .

وعندما نبحث عن أكثر الكلمات دوراناً في هذه الرواية ، سنجد كلمة (الصلاة) ؛ حيث تكرر ذكرها خلال سطور الرواية (٣٢) مرة ، مما يؤكد تغلغل تلك النزعة بوضوحٍ في نسيج فكر الكاتبة . هذا بالإضافة إلى أن معجم الكاتبة اللغوي قد زخر بكمٍّ هائلٍ من الكلمات التي قد تكشف عن وعيها لأمور الدين، وفهمها لأصول العقيدة ، لا سيما أنها تحسن توظيف هذه المفردات ، بحسب السياق الذي ترد فيه ، مثل كلمات : الشيطان ، الجنة ، الأمانة ، الإسلام ، الأرض الطاهرة ، صلاة الفجر ، صلاة الظهر ، صلاة العصر ، صلاة المغرب ، السجود ، الأذان، القبلة ، سجادة الصلاة ، أصوات المآذن ، الخشوع، السكينة ، النداء ، الجهاد ، الشهادة ، الأدعية ، مسبحتي ، حمدت الله، اللهم صل وسلم على محمد ، لا إله إلا الله ، البصيرة ، التقرب إلى الله ، الصلاة تعصم الإنسان من الزلل ، النور ، الحق ، الدين ، رضا الله ، الود ، العزة لله ولرسوله وللمسلمين ، ابتهالات ، الحرام ، الشدة ، الرخاء ، نصرة هذا الدين، الإيمان القوي ، النعيم ، غرور الدنيا ، الموت والحياة ، المناجاة ، القرآن ، العقيدة ، مباديء الإسلام .....

- ٤ -

نجحت الكاتبة في اختيار شخصية بطلة روايتها (سيتا) ، وأجادت رسم ملامحها النفسية والفكرية والخارجية ، لكي تكون بمثابة معادلٍ موضوعيّ

(The Substantive equivalent)للكاتبة نفسها ، " تسرد من خلالها أفكارها التي تريد أن توصلها للقاريء ، وتتقمص شخصيتها ، لتمثل الدور المنوط بها خير تمثيل "[٩]. وقد نجحت (سيتا) في أداء هذا الدور الصعب أداءً واقعياً ، أقنع القاريء وأمتعه ، فلم تشطح الكاتبة في اختراع حلول خيالية تعالج بها مشكلات البطلة ، بل تركتها تواجه مشاكل هذه الحياة ، بكل ما فيها من قسوةٍ ، ومعاناةٍ ، وعبوديةٍ ، وذلٍّ.

وتبعاً لهذا ، فإن شخصية (سيتا) لم تكن سلبيةً جامدةً ، ولكنها كانت إيجابية متنامية ، خلال أحداث الرواية ، فلم تضعف أمام إغراءات المال أو الذهب ، الذي كان الشاب (خالد) يغريها به ، برغم حاجتها الشديدة للمال ، وعدم حصولها على مستحقاتها المالية منذ أكثر من شهرين ، فكثير من الخادمات في مثل ظروفها يخضعن لمثل هذه الإغراءات ، ويسلمن أنفسهن للشيطان ، متذرعات بقسوة ظروفهن ، وشدة معاناتهن ، وحاجتهن إلى المال.

لكن شخصية البطلة ظهرت قوية ؛ من أول حفاظها على شرفها أمام ذلك الشاب المنحرف كالكلب المسعور (خالد) ، حتى إصرارها على المطالبة بحقوقها المادية من تلك الأسرة القاسية ، واعتصامها في غرفتها ، وإضرابها عن العمل على مدى يومين متتاليين ، غير مهتمة بتلويح سيدة المنزل بإعادتها لبلدها ، أو استجلاب الشرطة لها .

وبدا تطور شخصية البطلة واضحاً من خلال تطلعها ورغبتها في التغيير نحو الأحسن ، فهي تتمنى أن تربي ابنها ، عندما تعود لبلدها ، على نفس الطريقة التي تربى عليها (إبراهيم) ، من حيث التدين ، والقرب من الله ، والمحافظة على الصلوات لوقتها ، وحفظ القرآن ، والسعي لنصرة الإسلام والمسلمين . وكذا ظهر هذا التطور من خلال عزمها على أن تصلي وتقوم الليل بخشوع مثلهم ، وتقبل على الصلاة بكل سعادةٍ وأريحية ، كما يقبل آل إبراهيم ، وكأنهم يقبلون على الحياة .

وهذا النمو والتطور الإيجابي في شخصية البطلة كان أمراً مقصوداً من الكاتبة، من غير شك ، لعدة أغراض :

أولها : أنها تحاول من خلال هذه الشخصية الدعوة إلى الحفاظ على عمود الدين ، وهو الصلاة ، والتقرب إلى الله في الشدة والرخاء ، والحذر من السعي وراء بريق الحضارة الغربية الحديثة الخادع ، والانجراف في طريق الشيطان .

وثانيها : إصلاح تلك النظرة السلبية للمجتمع السعودي المعاصر ، خاصة الطبقة الغنية التي تستجلب خدماً وخادمات من جنسيات مختلفة للعمل في بيوتهم أو شركاتهم ، فقد أدت بعض الحوادث الفردية لأرباب أو ربات المنازل تجاه الخادمات إلى رسم صورة سلبية لكثير من الأسر السعودية ، وصار الناس يعتقدون أنهم يضربون الخادمات ، ويستعبدوهن ، ويتعاملون معهن بشكل غير آدمي .

وثالثها : تغيير النظرة السلبية ، والصورة المقلوبة التي روجها الإعلام الغربي عن الإسلام والمسلمين ؛ حيث إنهم اتهموا المسلمين بأنهم متشددون وإرهابيون لابد من القضاء عليهم ، ولذا ترد الكاتبة عليهم بلسان البطلة قائلة : "عجبت لهذا الوصف ، وإبراهيم أمامي خير نموذج للشباب الذاهبين إلى الحرب ، وقد كتبت لزوجي أنه يوجد في البيت الذي أعمل فيه واحد منهم (الإرهابيون) ، وحدثته عن خلقه العالي ، عن ابتسامته المشرقة ، عن وجهه الوضيء ، عن حبه للأطفال ، عن قرآنه وصلاته ، هذا واحد من الإرهابيين الذين يقف العالم منهم على وجل !!! ترى ما الذي خلط الصورة في أذهان الناس حتى باتوا يرونها مقلوبة ... إنها السياسة كم أكرهها !!!

ويحمد للكاتبة أنها قد بدأت روايتها بسرد حكاية البطلة مع تلك الأسرة ذات الوجه القبيح ، وتعمقت في رسم صورة بالغة الدقة والتفاصيل ، بحيث جعلت البطلة – بل جعلت القاريء - تكره السعوديين ، وتنكر أن تكون السعودية هي بلد النور والحق والدين . ثم سرعان ما أصلحت تلك النظرة السلبية بالانتقال إلى الوجه الآخر المشرق للمجتمع السعودي ؛ والذي تمثله بحق أسرة إبراهيم المتدينة ، التي يمثل الدين عندها سلوكاً ، ونبراساً يوجه كل تصرفاتها وأفعالها.

واعتمدت الكاتبة كثيراً على تقنية (المناجاة) أو الحوار الداخلي [١٠] **(Soliloquy)** ؛ فسيتا تقول عندما جاءتها رسالة من زوجها : " آآآآآآآآآآآآه ، وألف آآآآآآآآآآآآه ، تباً لك أيها الفقر ! أنت من أتيت بي إلى هنا ! "

- وتتحدث مع نفسها بيأس عن تلك الأسرة التي ترفض إعطاءها حقوقها المالية : " لا أدري بما أصفهم ، فليس من الممكن أن يكونوا غير قادرين على دفع الأجرة ، فهم لا يمضي أسبوع دون زيارة للسوق ، وخروج ، وشراء المهم وغير المهم ، ولكن ماذا أتوقع من أناس لا يصلون ؟! "

- وفي تعليقها على لهو (عهود ، ومها) مع صديقاتهما ، تقول بحسرة : " ليتني لم آت إلى هنا حتى تظل هذه البلاد في مخيلتي كما كانت ؛ بلاد النور ، والحق ، والدين ، ترى هل هو المال الذي جعلهم هكذا ؟ ما الذي يحدث لهم ، شعرت أن الأمر أكبر من تفكيري ، وأن المصاب أعظم وأجلّ "

- وعندما تصلها رسالة فيها صورة حديثة لصغيرها ، تناجي نفسها قائلة : " ها هو ابني يكبر بعيداً عني ، يتعثر في الخطوات الأولى ، ويلوك الحروف في فمه علّه ينطق بكلمة ، ويتلفت فلا يجد أمه ، أي ثمن أقبضه مقابل هذا ؟ ومهما يكن الثمن ترى هل يستحق ؟ إن أجمل سنين الطفولة تُسلبُ من يدي ، وإن أوان غرس المحبة يفوتني ، وكم أخاف إن أتى أوان الحصاد ألا أجد إلا أرضاً بوراً ، تأخذ ولا تعطي ، عندما أعود هل يحتضنني طفلي ؟ أم أن أيام البعد ستبني بيني وبينه جداراً من الغربة ، التي لا أدري كيف أتجاوزها ...آآآآآآآآه يا صغيري لو تعلم كم من الأحمال على قلب أمك !! وكم من الآهات !! وكم من دمعةٍ حائرة !! ولكن عزائي أنني ما أتيت هنا إلا من أجلك أنت ... يا قلب أمك ، وكل أملها ، لابد أنك ستغفر لي هذا البعد عنك ، عندما تنعم بحياة أفضل من تلك الحياة البائسة التي عاشتها أمك ... نعم حياة أفضل إن شاء الله " .

- ويعلو صوت المناجاة عندما تحاول سيتا أن تقتدي بأسرة إبراهيم في تدينها : " لماذا لا أصلي مثلهم ، يوماً ما لابد أن أفعل ، إنهم يقبلون على الصلاة كإقبال الناس على الحياة ، يزرعون في داخلي دهشة بلا حد " .

- وتعلو المناجاة أكثر حتى نكاد نسمع صوت الكاتبة نفسها في مناجاة سيتا : " قد يبدو الطريق إلى الثبات صعباً ، ولكن إنما هو عجز النفس ، ووسوسات الشيطان ، ها منذ متى وأنا أسائل نفسي لماذا لا أصلي تلك الصلاة الليلية الرائعة التي يصلونها ، وكل يوم أقول غداً ، وكم تأخر هذا الغد ، إني بحاجة إلى الكثير من الصبر والحزم ، لابد أن أصلي لكي أتقرب إلى الله ، وأدعو لإبراهيم وأصحابه " .

- وتصل تلك المناجاة إلى ذروتها في آخر سطور الرواية في قول سيتا: " أين إبراهيم ؟؟؟؟؟ أين إبراهيم ؟؟؟؟؟ ليعلم الجميع أنه أمانة في أعناقنا ، ويا لعظم الأمانة ، إلى كل من يعتقد أن إبراهيم شخصية خيالية ...أقول : بل هو واقع ملموس ، ولو لم يكن كذلك ، ما كانت الحرب ، وما كان الشهداء ، وما كان أسرى جوانتانامو رمزاً لذلنا وعارنا ، رمزاً يستصرخ كل ضمير حي ، وكل من لديه بقية باقية من إيمان وعزة " .

- ٥ -

وفي تصوري أن رواية "عائشة البديّع" قد حققت متطلبات الرواية الفنية ، حيث عكست المقاييس الحديثة للرواية في البناء ، والعقدة ، والحوار، وخلق الشخصيات الروائية . فضلاً على أنها قد اختارت تقديم مادتها في هذا العمل ، ومعالجة قضاياها ، من خلال أسلوبين فنيين معروفين ، أولهما : الراوي العالم المحيط بكل شيء عن الوقائع التي يحكي عنها ، وهذا يرجع إلى انتماء الكاتبة لهذه البيئة التي تدور من خلالها أحداث الرواية .

والأسلوب الآخر ؛ وهو الأكثر شيوعاً في الرواية ، ويتمثل في تقديم الأحداث من منظور الشخصية الرئيسة في الرواية (سيتا) ، وتأهيلها فكرياً ، وثقافياً ، ونفسياً ، لتستطيع أداء هذا الدور على أكمل وجه . كما أن الكاتبة قد

لجأت في بعض أحداث الرواية إلى مسرحة الحدث ؛ من خلال عنصر الحوار الذي يكشف عن ماهية المتكلم دون ذكر اسمه، ودون أن يظهر الراوي للعيان، كما استخدمت منهجاً جذاباً في السرد أقرب إلى الحديث النفسي المباشر .

ويلاحظ أيضاً أن الكاتبة قد عمدت إلى توظيف تقنية الاسترجاع **(Flash Back)** ، من خلال تذكر أهلها وبلدها التي تسكن بداخلها ، وكذا من خلال تذكر ما روي لها عن الخادمة السابقة (ليتا) ، وما روي لها عن السحر الأسود الذي تلجأ إليه بعض الخادمات لإخضاع سادتهن لأوامرهن ، ثم استرجاع صورة الليل المرصع بالنجوم الزاهرة ساعة السحر في بيت العائلة الأولى ؛ ذلك المنظر الذي اعتادت رؤيته يومياً ، على مدار أكثر من خمسة أشهر . لكن الكاتبة " تمضي في مسار متصل الخطى ، تتابع السرد بشكل واقعي متنامٍ ، وإنْ لم تترك العنان للحكاية كي تأخذ مداها ، وتكشف عن بعض النهايات الطبيعية للشخصيات "[١١].

ومهما يكن من أمرٍ ، فقد استطاعت "عائشة البديع" تصوير خلجات البطلة ، ومشاعرها ، والتغلغل إلى تفاصيل مكنوناتها بدقة متناهية ، ووصف ما يحزنها ، وما يفرحها ، بأسلوب غلب عليه التعاطف مع هذه الشخصية ، وعكس بذلك قدرة الكاتبة الفائقة على تحليل المشاعر .

ومن المهم التنويه إلى أن الكاتبة قد اهتمت بالزمن التاريخي للرواية ، سواءً من حيث المرحلة التي دارت فيها الأحداث من بداية عام ٢٠٠٠ م ، أم من حيث الفترة التي استغرقتها الأحداث في حياة الشخصية الرئيسة ، وهي سنة كاملة تقريبا ، انتهت عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ م بقليل .

- كما تميز أسلوبها بروعة الوصف **(Description)** للأماكن ، ولطبائع الشخصيات، وهو عنصر رئيس من عناصر القصّ ؛ حيث كانت " تمعن في رسم التفاصيل الدقيقة في مشهد مسرحي متلألئٍ بالألوان ، والأضواء ، والملابس ، والأصوات ، فبدت الأماكن والشخصيات شاخصةً بوضوحٍ أمام عيني القارىء "[١٢] ، مثل:

- (ثم أخذتني السيدة إلى غرفة كبيرة ، كانت تسميها المجلس ، وكانت خاصة باستقبال الرجال ، كان المكان مليئاً بالمقاعد الفخمة ، إلى الستر الرائعة ، والتحف الجميلة ، كان اللون الأخضر الزاهي يغلب على المكان .. انتهينا منها إلى غرفة أخرى خاصة بالنساء ، شعرت أنها أكثر جمالاً ، حيث اللون الوردي هو السائد ، وفيها كل الأثاث المتكامل" .
- (أخذتني الفتاة إلى غرفتها ، وأخرجت عباءة أخرى غير العباءة التي تذهب بها إلى المدرسة ، وطلبت مني أن أقوم بكيها ، ففعلت ، وعندما ارتدتها رأيت أن هذه العباءة قد زادتها جمالاً ، حيث كانت ضيقة بشكل ملفت للنظر ... وضعت غطاء الوجه على نصف وجهها ، بينما بدت عيناها وجبينها ، وخصلات من شعرها ، ثم وضعت عطراً نفاذاً ، وتأملت نفسها في المرآة بكل رضا وغرور " .
- (انقسم الحضور إلى مجموعات ؛ النساء الكبيرات وضعن بساطاً على العشب الأخضر وجلسن فيه ، والفتيات جلسن على طاولات صغيرة أمام أحواض الزهور ، والصغار في مكان الألعاب ، وأما الشباب فهم اختاروا الجلوس حول المسبح ... واختلطت الأصوات ؛ من ثرثرة النساء ، إلى صراخ الصغار ، إلى ضحكات الفتيات " .
- (وبعد فترة بسيطة حضرت الفتيات ، كنَّ قد تجملن بشكل ملفت للنظر ، كانت مها ذات شعر قصير ، وضعت مادة لامعة على شعرها ، وأنزلت خصلات على جبينها ، وقد تماوج شعرها مع خصلات بنفسجية بلون ملابسها الضيقة جداً ... وكانت الأخرى ذات شعر طويل ، قد رفعت شعرها إلى فوق رأسها ، ثم أنزلته بشكل عكسي ، وقد وضعت هي الأخرى خصلات ملونة ، ولكن بعدة ألوان ، مثل ملابسها تماماً " .

وقد اتسم أسلوب الكاتبة بخصائص جمالية وبلاغية عدة ؛ فقد استخدمت كثيراً من الصور البيانية ، التي منحت أسلوبها جمالاً ، وسحراً فنياً بديعاً :

- كالتشبيه ، مثل : (وبقيت كالصنم أمامه) ، و (هذا الشاب كالكلب المسعور) ، و(كنت أشعر أني مثل طائر جريح بدأ يستعيد عافيته) ، و (ظل صداه يتردد في أعماقي ، وكأني أول مرة أسمع القرآن) ، و (كأنما إبراهيم قد سحرني بهذه القراءة) ، و (إنهم يقبلون على الصلاة كإقبال الناس على الحياة) ، و (جعلت من صالة المنزل أشبه بالحلم)، و(أصبح وكأنه طائر يطير بجناحيه).
- وكثر استخدامها للاستعارة والمجاز ، مثل : (عالمي البسيط الذي يسكن كل زاوية من زواياه ذكرى من الألم) ، و (بدأ النور يزيح الظلام كي يأخذ مكانه) ، و (كم كانت رائعة أصوات المآذن وهي تتشابك) ، و (هذا المجتمع الغريب الغارق في النعم) ، و (وشعرت أني أضمُّ بلادي إلى قلبي) ، و (تبّاً لك أيها الفقر ، أنت من أتي بي إلى هنا) ، و (يلوك الحروف في فمه) ، و (كان يسبح في ملكوت الله) ، و (أي كنز بين أيدينا ، أي كتاب هو القرآن) ، و (كان هناك سوار من الود يحيط بهم) ، و (كان القلق يرتسم على وجهها) ، و (أرسلت تحية إلى السماء والنجوم)، و (أصبح البيت الكبير مجرد جدران تخنقني) ، (وحاصرتني الهموم) ، و (آه لو ذقتن طعم الجوع) ، و (كان هناك ضجيج كسر حدة الصمت) ، و (نزلت إلى المطبخ أبحث عن شيءٍ أُسكتُ به جوعي).
- كما استخدمت الكناية في أكثر من موضع ، مثل : (وهم يتبادلون كلمات مقتضبة ، شعرت أنها خالية من الحياة) ، و (صُمَّتْ أذناي فلم أسمع إلا دقات قلبي) ، و (أي نوع من البشر هم ؟) ، (نظرت

إليه ، سارع بوضع يديه على وجهه ، وهو يغطي عينيه) ، و (يا لهؤلاء القوم كم يتقنون حرفة الترفيه عن أنفسهم) ، و (تضاربت الأفكار في رأسي) ، و (رسم على وجهها علامات لا تخفى على الناظر إليها) ، و (جلست أنتظر السيدة على أحر من الجمر) ، و(فوجئت أن العربية ضاعت من أفواه أهلها) ، و (عاد السيد من السفر ، وكان استقبال الجميع له فاتراً ، ولكن بدا أنه لم يهتم للأمر) ، و(أما خالد فلم يكن يهتم للأمر ، بل إن له عالمه الخاص الذي يفصله عن هموم البيت ، ومشاكل أبويه).

وعلى الرغم من التزامها العربية الفصحى في أغلب سطور الرواية ، فقد لجأت للعامية في الحوار ، كي تدع كل شخصية تعبر عن مستواها الثقافي والفكري والنفسي بحرية تامة ، وقد أحسنت صنعاً ، لكن استخدامها للفصحى لم يخل من هنات وأخطاء لغوية ، لكنها لم تكن مؤثرة في بناء الرواية ، أو أداء الفكرة ، مثل :

- قولها : (كان نور المكتبة مضائاً) ، والصواب : (مضاءً) .
- (كان احتراق البنايتين ناجم عن اصطدام طائرتين بهما) ، والصواب : (ناجماً) .
- (وأصوات الحرب التي لن ولم تنقضي) ، والصواب : (لم تنقضِ) .
- (وما كانوا أسرى جوانتانامو) ، والصواب : (وما كان أسرى جوانتانامو) ، فهذه لغة "أكلوني البراغيث" .
- (كان يرتدي قميصاً أبيضاً ، وبنطالاً أسوداً) ، والصواب : (أبيضَ – أسودَ) .
- (وكان يحمل معه طعام من الخارج) ، والصواب : (طعاماً) .
- (كنت أرى في الاهتمام بهذا الأمر ضرب من الجنون) ، والصواب : (ضرباً) .

- (في اليوم الذي تلى ذهابه، كان الجميع يلفهم صمت عميق) ، والصواب : (تلا) .
- (الحياة التي أصبحت سعار محموم وبشع) ، والصواب : (سعاراً محموماً وبشعاً) .
- (لابد أن أصلي لكي أتقرب إلى الله ، وأدعوا لإبراهيم وأصحابه) ، والصواب : (أدعو) .
- (كانت ضيقة بشكل ملفت للنظر) ، والصواب : (لافت) .
- (بينما بدت عينيها وجبينها ، وخصلات من شعرها) ، والصواب : (عيناها) .
- (حضرت الفتيات ، كنَّ قد تجملوا بشكل ملفت للنظر) ، والصواب : (تجملنَ – لافت) .

وبعد :

فإن هذه الرواية تسجِّل من منظور الكاتبة ، مرحلةً حرجةً من أصعب المراحل التي يمر بها المجتمع السعودي المعاصر وأدقها ، وتكشفُ لنا عالماً كان مجهولاً للكثيرين ، في سماته وتقاطيعه الدقيقة ، وسلبياته وإيجابياته ؛ هو عالم الخادمات الوافدات لدول الخليج العربي وما يعجُّ به من همومٍ وآهات ، وأفراحٍ وأتراح ، وتُقدِّمُ ، في سياقٍ فنيٍّ متميِّزٍ، نموذجاً لعائلة سعودية فاسدة ، جرفها تيار الحضارة الحديثة ، وأعمى عيونها بريق المدنية الخادع ، حيث نسى أفرادها الله فأنساهم أنفسهم ، في مقابل نموذج آخر إيجابي لعائلة أخرى صالحة ، أخذ أفرادها من الحضارة ما يتناسب مع العادات والتقاليد العربية ، والمباديء الإسلامية ، فلم ينسوا عروبتهم أو دينهم أو هويتهم ، وضحوا من أجل نصرة الدين بأموالهم ، وأبنائهم ، وأنفسهم ، وكان صبرهم جميلاً دائما في الشدة والرخاء .

وقد نجحت الكاتبة في سرد كل هذا في لغة سهلة بسيطة ، عبرت ، بحقٍ ، عن طبيعة الشخصيات دونما تزويقٍ أو مبالغة ، مما كشف عن نضوجها، وعمقها ، ووعيها لتقنيات فن الرواية الحديثة .

هوامش البحث :

[١] – انظر : منصور إبراهيم الحازمي: فن القصة في الأدب السعودي الحديث ، ط: دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨١ م . وكذا : محسن جاسم الموسوي: الرواية العربية : النشأة والتحول ، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨ م . وراجع أيضاً : محمد عبد الرحمن الشامخ : النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ، ط ٣: دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، السعودية ، ١٩٨٨ م .

[٢] – عائشة البديع : صفحات من مذكرات خادمة : ص ٥ ، ط : دار رواية لندن ، المملكة العربية السعودية .

[٣] – عائشة البديع : صفحات من مذكرات خادمة : ص٩٤ .

[٤] – عائشة البديع : صفحات من مذكرات خادمة : ص٥٥ .

[٥] – المصدر نفسه والصفحة .

[٦] – المصدر نفسه : ص ٣٩ .

[٧] – المصدر نفسه: ص ٦٨ .

[٨] – سورة القصص : الآية (٧٧) .

[٩]– محمد صالح الشنطي : فن الرواية في الأدب السعودي المعاصر ، ص ١٧٧ ، ط : نادي جازان الأدبي ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٩٠ م .

١٠– المناجاة أو المونولوج الداخلي : وسيلة للتعبير عن مكنونات النفس التي قد يعجز الحوار العادي عن توصيلها ، وتنشأ نتيجة صراع داخلي ناتج عن عدم التكيف أو التواصل مع الآخرين ، ويترتب عليه مشاعر متضاربة أو حيرة وتردد . وتبرز المناجاة في المسرح كثيراً باعتبارها تقنية تعبيرية . انظر : محمد يوسف نجم : المسرحية في الأدب العربي الحديث (١٩١٤ – ١٨٤٧) ، ط٢: بيروت ، لبنان ، ١٩٦٧م . وراجع أيضاً : محمد غنيمي هلال : في النقد المسرحي ، ط: دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٨م .

١١– محمد جلاء إدريس : الأدب السعودي الحديث : ص ١٨٨ ، ط٢: مكتبة الرشد ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .

١٢- بكري شيخ أمين : الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية : ص ٢١١ ، ط٢ : دار الأنوار ، بيروت ، ١٩٧٨ م .

أهم المصادر والمراجع

١- أبو داهش ، عبد الله محمد : الحياة الفكرية والأدبية في جنوب البلاد السعودية ، ط: دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام ، الرياض ، السعودية ، ١٩٨٢.

٢- إدريس ، محمد جلاء: الأدب السعودي الحديث ، ط٢: مكتبة الرشد ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .

٣- البديّع ، عائشة: رواية صفحات من مذكرات خادمة ، ط: دار رواية لندن ، المملكة العربية السعودية .

٤- الحازمي ، منصور إبراهيم: فن القصة في الأدب السعودي الحديث ، ط: دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨١ م .

٥- حافظ ، صبري: خصائص الأقصوصة البنائية ، مجلة فصول القاهرية ، ١٩٨٢ م .

٦- الساسي ، عمر الطيب: الموجز في تاريخ الأدب السعودي ، ط: دار الكتاب الجامعي ، جدة ، ١٩٦٥ م .

٧- الشامخ ، محمد عبد الرحمن: النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ، ط ٣: دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، السعودية ، ١٩٨٨ م .

٨- الشنطي ، محمد صالح:

- في الأدب العربي السعودي وفنونه واتجاهاته ونماذج منه ، ط٥: دار الأندلس للنشر والتوزيع ، حائل ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٣ هـ / ٢٠١٠ م..

٩- القصة القصيرة المعاصرة في المملكة العربية السعودية ، ط : دار المريخ ، الرياض ، السعودية ، ١٩٨٧ م .
١٠- فن الرواية في الأدب السعودي المعاصر ، ط : نادي جازان الأدبي ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٩٠ م.
١١- شيخ أمين ، بكري: الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ، ط٢ : دار الأنوار ، بيروت ، ١٩٧٨ م .
١٢- عبد الجبار ، عبد الله: التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٩٥ م .
١٣- الموسوي ، محسن جاسم: الرواية العربية : النشأة والتحول ، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨ م .
١٤- نجم ، محمد يوسف : المسرحية في الأدب العربي الحديث (١٩١٤ - ١٨٤٧)، ط٢: بيروت ، لبنان ، ١٩٦٧ م .
١٥- نوفل ، يوسف حسن: أدباء من السعودية ، ط : دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، السعودية ، ١٩٨٢ م .
١٦- الهاجري ، سحمي: القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية ، نادي الرياض الأدبي ، الرياض ، ١٤٠٨ هـ .
١٧- هلال ، محمد غنيمي : في النقد المسرحي ، ط: دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٨٨م .